أين العروبة من الإسلام

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع:

نعم سوف أظل عربيًا .

سوف أظل أقف شامخًا بتلك العروبة ، فخورًا بذلك الانتماء ، مترفعًا عن سذاجة أولئك الذى سقطوا بلا وعى ، فى فخ أعدائنا التاريخيين ، فإذا بهم عقب أن أُخضِعوا لعمليات غسل المخ المقنعة أقرب إلى الممثلين الهزليين ، يلبس الواحد منهم ثوبًا ليس له ولا يعبر عن ذاته الحقيقية ، إن من وظيفتنا أن نزيل عمليات التسميم الفكرى ، التى أُخضِعَ لها أولئك ، فهم جزء منا ولم نفقد الأمل بعد فى أن يعودوا إلى منزل الآباء ، يعلنون التوبة ويطلبون الصفح ، وقد فهموا حقيقة المأساة التى تردوا فى جنباتها ، بعد أن قادوا أمتنا إلى أن تدفع ثمن أخطائهم بدم أبنائها بل وبكبريائهم .

سوف أظل عربيًا ؛ لأننى كلما أخضعت التاريخ البشرى وقصة الإنسانية لنظرة متأنية ، إذا بى أعود أكثر تمسكًا وأكثر تعلقًا بتلك الأصالة ، وبذلك الانتماء ،ولا أخرج من حوار فكرى إلا وأنا مشفق على أولئك الذين يعتقدون أنهم تحضّروا ، فإذا بهم يلقون بنا فى متاهات الإنسان الفطرى المتخلف .

لقد عدنا إلى التاريخ البعيد نسأله من هو العربى ؟ كذلك عرفنا فى ضوء تلك الخبرة وما قدمت من تراكمات معنى الأرض العربية ،ورأينا كيف أن هذين المفهومين لا يتطابقان ، وأن كليهما سوف يقدم للتعريف وللتحديد بمعنى القومية العربية ، ولكن يجب علينا أيضًا أن نعود إلى ذلك التاريخ نسأله : ما هى حقيقة العلاقة بين العروبة والإسلام ؟ .

تحديد العلاقة بين العروبة والإسلام هو شرط ضرورى ولازم ، حتى نستطيع أن

(*) مجلة " L Avant Grade Arabe " الطليعة العربية، فرنسا العدد 97، فى 18 آذار - أبريل - 1985، ص 26 وما بعدها .

نقنن بصورة محددة المقاطع والمتغيرات لمفهوم القومية العربية ، عدم وضوح هذه العلاقة مكنت خصومنا من عملية تشويه مقنعة ، ولكن بعيدة المدى ، هذا التشويه أدى إلى إضعاف موقفنا فى السابق بمواجهة التحدى الأوربى ، ومهد للاستعمار الغربى ، ولولا ذلك لما حدثت مأساة فلسطين ، واليوم تتم العملية ذاتها من خلال إبراز القومية العربية على أنها تعبير عن عنصرية تتجافى وتتعارض مع الإسلام ، وهذا بحد ذاته ليس إلا عملية تشويه مقنعة الهدف ، منها إضعاف الجبهة العربية تمهيدًا لاختراقها ، وفرض تمزق آخر عليها من نوع آخر ، وفكرنا السياسى غير قادر على أن يواجه هذا التحدى ويكشف عن حقيقته ويرفع الغشاوة عن أعين أولئك الذين سقطوا فى الفخ بلا وعى ولاتدبر .

ولكن نقبل التحدى .

العروبة والإسلام .. والعلاقة المركبة :

مرة أخرى نعود إلى التاريخ نستجوبه ونستهدى منه الإجابة ، لنرفع الغشاوة ،ونحن نحاول أن نفهم الواقع الذى تعيشه أمتنا فى الربع الأخير من القرن العشرين .

العلاقة التاريخية بين العروبة والإسلام فى حقيقة الأمر علاقة مركبة ، فهناك أولاً أثّر الإسلام فى العروبة ، وكيف طور تلك العروبة السابقة على الإسلام ذاته بعدة قرون من حيث المفهوم أولاً ومن حيث تشكيل ظاهرة الانتماء بخصائص معينة ثانيًا ، ولكن من ناحية أخرى هناك منجزات معيّنة للإسلام ، ما يستطيع أن يحققها ذلك الدين دون تلك العروبة التى قدمت للإسلام مجموعة من العناصر ، تفاعلت مع جوهر الدعوة لتساهم فى تطور دعوة الإسلام ، ولتفرض على ذلك التطور مذاقًا خاصًا ، لتحقق ذلك البناء المتكامل الذى نصفه الآن بأنه تراثنا التاريخى والقومى ، هذا التطور يملك أبعاده المتعددة ، وأحد هذه الأبعاد التى تعنينا فى هذا النطاق على وجه التحديد هو مفهوم الدولة ذاتها ، أى ذلك البناء الذى تمركزت حوله الوظيفة الحضارية للدعوة الإسلامية .

متابعة هذه الأبعاد الثلاثة ، سوف تفصح عن حقيقة العلاقة بين العروبة والإسلام كما سجلتها خبرة الأحداث المتعاقبة منذ أكثر من عشرين قرنًا - وحتى اليوم - فى حلقات متتابعة من التطور ، فلنحاول أن نفهم دلالة هذا التطور ولو فى معناها العام .

أ - أول تساؤل لابد وأن نطرحه : ماذا فعلت العروبة للإسلام ؟ ماذا قدمت لتدعيم تلك الثورة الإسلامية التى فرضها القرآن مع الدعوة المحمدية ؟ لو أردنا أن نحدد عناصر العروبة إزاء الإسلام ، أو بعبارة أخرى : ما فعلته العروبة لتدعيم الدين الإسلامى ، بحيث أضحت العروبة بمثابة القلب لتلك الحضارة ولذلك التراث ، لكان علينا أن نعود إلى حقائق ثلاث يجب علينا أن نعى معناها ودلالتها الحقيقية فى ذلك البناء الشامخ :

أولاً : اللغة حيث يصير القرآن أداتها المعبرة ، بل وبحيث فقط من خلاله تحول الكتاب المقدس إلى منطق عربى ثابت ، ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ [يوسف : 2] لقد كتب القرآن باللغة العربية ، واستخدمت فى صياغة المفاهيم العربية للتعبير عن مدركات الدعوة الإسلامية واللغة ليست فقط رموز وألفاظ إنها مدركات يتكون منها نظام كامل للتعامل الذهنى من التصور للحقيقة ، وهل يستطيع اليوم غير العربى أن يبلور منطق الإسلام إلا من خلال تلك اللغة التى هى لغة القرآن ، القرآن ليس مجرد ألفاظ إنه الأداة المعبرة عن منطق ثابت وهو منطق العروبة اللغوية .

ثانيًا : كذلك فإن هذه العروبة هى التى قدمت التصور والمدركات الفقهية . الفقهاء - أى أولئك الذين أقاموا صرحًا كاملاً لقواعد التعامل والممارسة- إنما عاشوا على لغة القرآن ومدركاته ، أو استطاعوا من خلال التعامل فقط مع ذلك التراث العربى لغة ومفهومًا وإدراكًا ، واستنادًا إلى الاستنباط الفكرى والقياسى المتخصص المستند إلى جوهر التعاليم القرآنية أن يبنوا ذلك الإطار للممارسات اليومية ، الذى تميز بالتكامل والتفريع والتناسق فى آن واحد ، وهل استطاع فقيه آخر غير عربى أن يقدم لنا نموذجًا متميزًا للتعامل والممارسة أيضًا فى نطاق التعاليم الإسلامية ؟

الأئمة الأربعة تعاملوا مع نظمهم الفكرية ، وبغض النظر عن خلافاتهم من منطلقات واحدة فى جميع التطبيقات الإسلامية الأخرى غير العربية - من أقصى « الهند » حتى الولايات المتحدة اليوم -لا تحال إلا إلى فقيه عربى ، وإلى فقه عربى وعندما حاول مفكرو « إيران » فى لحظة فوران انتهوا بالفشل الذريع [1] .

ثالثًا : القيادات الكبرى والتى وحدها خلقت التعامل وفرضت إرادة الدولة واستطاعت بناء دولة تنتمى وتستمد مصادرها الحقيقية من الأصل العربى ، إن الحضارة ليست مجرد تعاليم ، ولكنها انطلاقة فردية فى مواجهة المجهول ، ومغامرة بشرية فى عالم المثاليات ، ولم يفعل ذلك إلا مجموعة من الفئات المختارة - التى شكلتها وصاغتها الأمة العربية ، فمن الذى واجه مشكلة بناء الدولة ، وهو أول التحديات التى واجهت الفيضان الإسلامى وأكثرها خطورة ؟ لو اقتصرنا فقط - على سبيل المثال - على الاسماء الخلاّقة التى أرست تقاليد هذه الدولة الكبرى ؛ لكان علينا أن نتوقف بإعجاب ورهبة أمام أسماء خلفاء أربع هم : عمر بن الخطاب ، ثم معاوية ، وأكملها عمر بن عبد العزيز ، وسمح لها بالانتقال إلى المفهوم العالمى هارون الرشيد ، **الأول** : خرج بالدولة من الصحراء إلى المدينة ،

(1) هذه المقولة للأسف تتنافى مع الواقع التاريخى ، فعلماء الإسلام الأجلاء أغلبهم من غير العرب ، وإن كتبوا بالعربية ، كما أن التجربة الإيرانية اليوم تجاوزت فى فقهها اللغة العربية .

obeikandl.com

والثانى : انتقل بالدولة من عالم الانغلاق القطرى إلى عالم الانفتاح القومى ، **والثالث** : استعاد مثاليات البناء السياسى من نقاء وإيمان كما صاغها الرسول ﷺ ، ثم جاء هارون الرشيد فنقل الدولة إلى وظيفتها العالمية ، أسماء عربية انطلقت جميعها من إدراك عربى وتعبير عن العقل العربى .

الإسلام إزاء العروبة :

هذه هى العروبة وما قدمته للإسلام ، وهذا هو ما قدمه المجتمع العربى لتحقيق الازدهار الإسلامى كدعوة وكحضارة ، لكن يظل ثمة شطر آخر يجب أن نحدده بوضوح ، وأن نجيب عليه بدقة : ما هى وظيفة الإسلام إزاء العروبة السياسية ؟

ب – ماذا قدم الإسلام لتلك العروبة التى رأيناها قبل الإسلام ، والتى ما كانت تستطيع بجهودها الذاتية أن تحققه وأن تحصل عليها ؟ أيضًا بهذا الصدد وبتبسيط مطلق علينا أن نقف إزاء حقائق ثلاث :

أولاً : نظام القيم ، فالإسلام تعاليم ومثاليات ، والأخلاقيات الإسلامية هى وحدها التى مكنت المجتمع العربى من أن يكتشف ذاته المثالية العربية . وماكان يستطيع أن يصوغها فى إطار متكامل سوى من خلال تلك القيم ، وذلك النظام للقيم [1] الذى وصفه وصاغه القرآن .

ثانيًا : الوحدة والتماسك . ماذا كان العرب قبل الإسلام غير مجموعة متفرقة من القبائل والشعوب ؟ لقد سبق من متابعتنا التاريخية أن رأينا التعدد – ما بين الشمال والجنوب والوسط فى شبه الجزيرة – وكيف أن المجتمع العربى لم يستطع – رغم ازدهاره فى بعض المراحل – أن يحقق لنفسه أى وحدة – حتى جاء الإسلام فخلق الدولة الواحدة القاهرة التى فرضت الاحترام فى كل مكان .

ثالثًا : الوظيفة الحضارية ، الإسلام هو دعوة لقيادة الشعوب **والارتقاء** بالفرد من مستوى التبعية والتخلف والأنانية ، إلى الأصالة والقدرة والاستعداد للتضحية . فقط الإسلام مكن العروبة من أن تفهم هذه الوظيفة ، فتنقل عالم الهمجية إلى ذلك النموذج

---

(1) للقيم : كلمة قيم Values يحيط بها الكثير من الغموض والخلط ، سواء من الناحية اللغوية أو الناحية الاصطلاحية ، ولكن حقيقتها هى كلمة قرآنية بليغة ، فكلمة (قِيم) هى جمع (قيمة) أى الأمر المعتدل ، فى الوضع الأمثل ، قال تعالى : ﴿ .... **وذلك دين القيمة** ﴾ [البينة : 5] ، وقال تعالى : ﴿ **فيها كتب قيمة** ﴾ [البينة : 3] . راجع لمزيد من الإيضاح كتاب : « كيف نفكر استراتيجيًا ، اللواء أ.ح.د. فوزى محمد طايل ، مركز الإعلام العربى ، القاهرة عام 1997 ص 30 وما بعدها .

الذى لم تستطع الإنسانية حتى اليوم أن تخلق مثيلاً أو بديلاً له .

جـ - هذا الإطار العام الذى بلورنا عناصره بهذا التبسيط المطلق ، يسمح لنا أن نفهم كيف أن العلاقة بين العروبة والإسلام ، هى علاقة مركبة تختلف من حيث أبعادها ومستوياتها ، ويجب أن تتحد تلك العلاقة بصراحة ووضوح ، ولو نظرنا إلى الدلالة التاريخية واقتصرنا مؤقتًا على هذه الدلالة ؛ لوجدنا أن تلك العلاقة ، ورغم أنها أخذت صور التفاعل المتبادل بحيث أن الإسلام بدون العروبة ما كان قادرًا على أن ينتشر ، ويحقق تلك الفاعلية التى بدت واضحة منذ القرن الثالث الهجرى ، وأن العروبة دون الإسلام ما كان يمكن أن تونع ذلك الإيناع الذى نعرفه ،والذى سمح لها بأن تثب لتكون أول نموذج لدولة القومية خلال النصف الأول من العصر الأموى ، وبصفة عامة خلال القرن الأول الهجرى فى مجموعه ، إلا أن هذه العلاقة - فى حقيقة الأمر - تدور حول ثلاثة عناصر يكمل كل منها الآخر :

أولاً : هناك العلاقة التاريخية بمعنى التوالد الزمنى ، حيث الدولة القومية العربية هى التى أعدت للدولة العالمية الإسلامية ، فهى مقدمة لها ومرحلة لازمة وضرورية للوصول إليها ، العروبة قدمت للإسلام من جانب ، وهى كمفهوم قومى أعدت للدولة العالمية التى هى جوهر النظام السياسى الإسلامى من جانب آخر .

ثانيًا : وهناك العلاقة النظامية ، وهى النتاج الطبعى للعلاقة التاريخية ، حيث أن الدولة العالمية - الدولة العباسية - قامت على الدولة القومية . إن الدولة العالمية التى حولها يتبلور الإسلام فى حقيقتها ، هى نتاج للدولة القومية التى تم بناؤها بفضل العروبة السياسية .

ثالثًا : ثم هناك العلاقة الوظيفية ، حيث أن الإسلام وظف العروبة لأهدافه المثالية . وحيث أن العروبة وظفت الإسلام لتحقيق وحدتها العضوية ووظيفتها التاريخية .

لنستطيع أن نفهم معنى هذه العلاقة ذات الأبعاد الثلاثة ، ونستخلص نتائجها ونطلق هذه النتائج على واقعنا المعاصر ، علينا أن نعود مرة أخرى إلى المتابعة التاريخية - بناء الدولة فى تراثنا - وفى ذلك النموذج الذى ينتهى بالعصر العباسى الأول - مر بمراحل ثلاث ، مرحلة المدينة الدولة ، ثم مرحلة الدولة القومية وأخيرًا مرحلة الدولة العالمية :

الأولى وهى : التى استمرت منذ الدعوة حتى مجىء عمر بن الخطاب إجمالاً . خلال هذه المرحلة كانت الدولة تدور وتتحدد بما يسمى الدولة - المدينة إنها تذكرنا بالنماذج الأولى للوجود السياسى« كأثينا وروما» . إنها مكة تستقبل محمدًا ﷺ عقب غياب لتبدأ بوضع أصول الإدراك الجديد للحياة السياسية ، وهى فى هذه المرحلة تستمر فى رسالتها

السابقة على الدعوة الإسلامية ، ولكنها وقد طُعّمت بدم جديد وبمثالية جديدة بصبغة خاصة - بوظيفة عالمية - لا تزال عناصرها لا تعدو أن تكون مبادىء عامة مجردة ، الرسول ﷺ خلق - أى ربّى - الرجال وقدم نموذج القيادة المثالية ، وجاء عمر بن الخطاب ليخرج بهذا إلى العالم الفسيح الذى حوله فاتحًا ، ومنذ تلك اللحظة بدأت الدولة القومية - الدولة العربية - التى سوف تكون نموذج التحليل فى فلسفة « ابن خلدون » حيث يستخدم كلمة العصبية للتعبير عن مفهوم القومية ، عمر بن الخطاب ، ثم معاوية وعقبهما عمر بن عبد العزيز كل منهم قدم إسهاماته ومعهم آخرون فى بناء الدولة القومية ، إنها الدولة العربية الأولى التى سوف تستغرق قرابة قرن كامل من الزمان على الأقل فى خلال هذه الفترة سوف تتفاعل القيم الإسلامية مع القدرة العربية، ولكن فى نطاق محدد أساسه : أن الشعوب الأخرى تأتى وتنطوى تحت هذه المظلة ، لتقودها الصفوة المختارة العربية ، وعندما نصل إلى العصر العباسى ، نجد مفهوم الدولة القومية قد اختفى ، وتحلل ليحل محله مفهوم الدولة العالمية ، ونجد كيف تغلغلت فى الإدراك الجديد مفاهيم أخرى أكثر توافقًا وانسجامًا مع مفهوم الدولة العالمية .

فلنقف مؤقتًا إزاء النتائج التى يجب أن نعيها من هذه المتابعة التاريخية :

أولاً : الدولة القومية مرحلة سابقة على الدولة العالمية ولازمة حتى نستطيع أن نصل إلى هذا التطبيق الأخير ، والدولة القومية تاريخيًا فى تراثنا سبقت الدولة العالمية ، وأعدت لها ، وما كانت الدولة العالمية تستطيع أن تتواجد قبل أن نجتاز مرحلة البناء القومى .

ثانيًا : أن واقعنا المعاصر يرتبط ببقاء الدولة القومية ، وليس ببناء الدولة العالمية ، بل ولا ندرى هل يصلح الإطار المعاصر لبناء الدولة العالمية من عدمه ؟

ثالثًا : الدولة القومية فى تراثنا تعنى الدولة التى تستند إلى مفهوم العصبية . والعصبية لا تعنى سوى التماسك ، لا تعنى التفرقة ، ولا التميز العنصرى ، مفهوم التميز العنصرى، مفهوم دخيل على تقاليدنا ، لم يتسرب إلى أمتنا العربية إلا عقب الاحتكاك بالعالم الغربى وفى ثنايا هذا الاحتكاك .

وكل من هذه النتائج تملك مقدماتها ، وتفرض أيضًا مواقف معينة من حيث التعامل مع الواقع المعاصر .

فهل نحن قادرون على هذه المواجهة ؟ !